زكى على
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة فاروق الأول

مصر فى عهد البطالمة

مركزها السياسى والاقتصادى والثقافى

مستخرج
من مجلة « العلوم »

زكى على
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة فاروق الأول

مصر فى عهد البطالمة

مركزها السياسى والاقتصادى والثقافى

مستخرج
من مجلة « العلوم »

مصر فى عهد البطالمة

مركزها السياسى والاقتصادى والثقافى

للأستاذ زكى على

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

مصر بلد ذو تقاليد قديمة ، له تراث من الماضى البعيد الذى يحسب بآلاف السنين ، وحضارة معروفة كان من شأنها أن أوجدت إدارة ودينا وحياة اجتماعية خاصة بسكان وادى النيل ، ولكن حالها كان قد تغير عند فتح الاسكندر فلم يكن لها إدارة منظمة وقوانين مرعية وثروة اقتصادية ، كما كان شأنها قبل خضوعها لحكم الآشوريين والفرس .

وقبيل فتح الاسكندر فى الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد كانت العلاقات بين وادى النيل وبين العالم الاغريقى وثيقة ، وكان عدد كبير من الاغريق من كل مكان هبطوا أرض مصر كالطير أبابيل واستقروا فى وادى النيل ، وساعدوا مصر فى شتى المناسبات والظروف على النهوض بأعبائها ، وكان لابد أن ينجم عن هذا الاتصال نتائج ذات بال فيترك أثراً باقيا محسوساً فى شئون بلادنا ، ويمهد الطريق أحسن تمهيد للفتح المقدونى ولحكم البطالمة فى مصر التى أصبحت أرضها صالحة للاستعمار الأغريقى ، فلما قاد الاسكندر الأكبر حملته على مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق . م . لم يلق أية مقاومة ، ورحب به أهلها أحسن ترحيب ، ولكنه لم يمكث فيها طويلا ، إذ ما لبث أن عاد ثانية إلى آسيا فى الربيع التالى ليتم مشروعه الكبير ، وهو محاربة الملك الفارسى دارا الثالث ، وعلى ذلك يكون الاسكندر قد بقى فى حوض النيل مدة لا تزيد عن الوقت الذى يقضيه السائح العادى فى الوقت الحاضر فى زيارة واحدة لمصر ، ولكن على رغم قصر هذه المدة فانه غيَّر مجرى التاريخ المصرى ، وأسس فى مصر نواة حكومة مقدونية بقيت

فيها أطول مما بقيت فى أى بلد آخر ، تلك هى حكومة البطالمة .

وفى هذه الفترة القصيرة وضع هـذا الفاتح العظيم أسساً لمنشئات عامة فى مصر أتمها من بعده خلفاؤه فيها ، فبقيت على مضى الزمان تخلد ذكراه وذكرى عهد البطالمة . وأهم هذه المؤسسات كلها مدينة عظيمة أنشأها محل قرية صغيرة كانت تسمى راقودة Rhakotis غربى المصب الغربى للنيل ، وأمر بأن تسمى المدينة الجديدة باسمه «الاسكندرية» فخلدت بحق ذكراه ، وأصبحت أثراً لا يمحى من بين آثاره التى تركها للتاريخ من بعده — وإن العناية الفائقة التى صحبت اختيار هذا الموقع ، والنطاق الواسع الذى روعى فى وضع أسسها ، وتخطيط شوارعها الطويلة المستقيمة ، وتشييد أبنيتها ومعابدها ، وتزيين شوارعها بالأعمدة الفخمة والتماثيل العظيمة مما لم يكن العالم إذ ذاك يعهد مثله فى انشاء البلدان وتخطيطها — لتدل دلالة قاطعة على المستقبل العظيم الذى كان يرجى لهذه المدينة والبلاد التى قدر أن تكون حاضرتها فى الشرق أجمع وقتئذ (١) .

وبعد أن أتم الاسكندر تنظيم شئون مصر ووضع الأسس العامة التى كان ينوى أن تقوم عليها حكومته فيها ، ترك البـلاد ميمما نحو الشرق وقدر له ألا يعود إلى مصر إلا جثة هامدة يحتويها قبره العظيم المسمى «سيم» Semi (ولعلها تحريف للكلمة اليونانية Soma ومعناها جسم) الذى شـيده له البطالمة فى الاسكندرية ، وأحاطوا ذكراه بكل مظاهر التبجيل والتكريم ، وبدأت عبادة الاسكندر فى مصر فأكسبتها مركزاً خاصاً جعل العالم فى الشرق ينظر إليها كمركز وسيط تشرئب إليه الأعناق ، وترمقه عين المهابة والاجلال — وكانت سياسته التى رسمها لنفسه فى الشرق تنطوى على بناء صرح مملكة أغريقية ، اسيوية ، أفريقية ، تكون مصر أحد أركانها . ولقد نصب من نفسه خلال مدة حكمه القصير قوة جعل جل همها تمدين وتحضر أتباعه فى آسيا وأفريقيا

(1) Breccia, Alexander Ad Aegyptum; Forster, Alexandria; Strabo's Geography, vol. III. book XVII, 9—12 , Van Groningen, „A'Propos de la Fondation d' Alexandrie, in Raccolta Lumbroso, 1925; H. J. Bell Alexandria in Journal of Egyptian Archaeology pp. 171 - 184. vol XIII, 1927; U. Wilcken Alexander The Great.

وتعليمهم المعيشة فى سلام وطمأنينة جنبا إلى جنب مع الغزاة الفاتحين من الاغريق والمقدونيين ، وتشجيعهم على المصاهرة والاختلاط حتى يقرّب بينهم ويزيل شقة الخلاف فيمزج الشرق بالغرب ، ولقد سلك من الوسائل الأخرى ما مكنه من إتمام عمله والتوفيق فى مهمته ، فأسس مدناً فى طول امبراطوريته الواسعة وعرضها على نسق الاسكندرية بمصر ، لتكون نواة صالحة لنشر الحضارة الأغريقية فى الشرق ، ولقد بلغ عدد هذه المدن التى أسست على هـذا النحو عشرين مدينة تقريبا سمى أغلبها بالاسكندرية ، تخليدا لذكرى مؤسسها العظيم ، فأثمر عمله فى هذه الناحية وأتى بنتيجة لا بأس بها ، وترك أثرا فى بعض نواحى الحضارة الشرقية القديمة ، وصبغها بطلاء أغريقى فكان نصيب مصر من هذا الطلاء الذى اصطبغت به إثر الفتح المقدونى كبيرا لقربها من مركز الحضارة الاغريقية ، وبقيت مطبوعة بهذا الطابع الأغريقى نحو ألف عام تقريبا حتى الفتح الاسلامى (1) .

ولـكن الاسكندر لم يعمر طويلا ليتم مشروعاته العظيمة ، ويخرج إلى حيز التنفيذ كل ما كان يجول بخاطره ، فتوارى ذلك النجم الساطع تاركا إتمـام عمله إلى خلفائه من القواد المقدونيين الذين اقتسموا ملـكه فيما بينهـم ، وسرعان ما ظهر فى الأفق بعد موته بوادر تفكك تلك الامبراطورية القصيرة العمر التى تعب فى تكوينها الاسكندر الأكبر ، وأخذ التنافس والحسد يدبان بين قواده ، ولـكن أحدهم وهو بطلميوس الأول بن لاجوس ، كان حريصا حذرا سريع الخاطر ، أوتى حظاً من الجرأة والنشاط فى أوقات الأزمات ، وكان من الأناة وعمق الفكر بحيث لا تفوته بادرة أو يغفل عن وجه من وجوه الرأى فيما يعرض له من أمور أو يحيط به من مشاكل ، وله من قوة بنيته وقدرة جسمه على احتمال المكاره والصعاب ما هيأه لتدبير أمره وإحكام خطته ، حتى استطاع أن يؤسس أسرة قدر لها أن تحكم مصر ثلاثة قرون وأن تستقل بها ، وعرفت فى التاريخ

(1) U, Wilcken, Alexander The Great, 1930 ; V,Ehrenberg, Alexander and the Greeks, 1938

باسم أسرة البطالمة أو اللاجيديين Lagidae نسبة إلى مؤسسها الأول بطلميوس ابن لاجوس الذى استطاع بمـا أوتى من مواهب وذكاء فذ أن يقتنص مصر ، وأن يحتفظ بها ويثبت مركزه فيها ويؤسس فيها ، لنفسه ولأبنائه من بعده ، حكم هذه الاسرة التى أقامت صرح حضارة لا تزال بعض آثارها فى مصر إلى وقتنا هذا دليلا ماديا على مقدرة البطالمة الفائقة ، وعلى علو شأنهم وكعبهم فى فنون شتى .

وسرعان ما وجد بطلميوس الأول فى مصر تلك الولاية الغنية التى كان يطمع فيها ، والتى مكنته من أن يجعل منها مركزاً ممتازاً قوياً لنفسه ، وبدت فراسته وحسن اختياره مصر عندما فكر منافسوه من خلفاء الاسكندر فى غزو مصر ، إذ أن مصر بلد صعب المنال على من يتطلع إلى غزوه تحميه طبيعته الجغرافية . ولقد ظهر مركز مصر الممتاز وموقعها الفذ الحصين بجلاء ووضوح أثنـاء المشاحنات التى وقعت بين خلفاء الاسكندر وقواده المقدونيين الذين أعماهم الطمع والجشع المادى ، فاستمروا فى عداء حينا ، وأخذ وعطاء حيناً آخر مدة أربعين عاماً تقريباً بعد موت الاسكندر ، كل يطمع فى أن تكون له السيادة التامة على امبراطورية الاسكندر والتغلب على منافسيه . وطال أمد الخلاف ، واشتبكت الجيوش غربى آسيا وعلى سواحل بحر الأرخبيل وفى جزره العديدة وكان ملك مصر خلال تلك الفترة الطويلة كثيراً ما يقبع فى واديه الذى يشبه القوقعة ، فيحتمى فى طبيعته المنيعة وقت الشدائد والأزمات ، ولـكنه كان يضطر من أجل تحقيق أطماعه ومآربه خارج مصر أن يأخذ بنصيب فى هذه المشاكل ، فخب فيها ووضع ، وجالت بخاطره أطماع وأحلام تدور حول توسيع رقعة أملاكه خارج مصر ، وبسط نفوذه على الجزء الجنوبى من الشام وقبرص ، وتثبيت مركزه فى الساحل الجنوبى والغربى من آسيا الصغرى ، ثم الاحتفاظ بقيرنيه (برقة) ، وضمان السيادة البحرية فى مياه بحر الارخبيل .

وكانت أساطيل مصر وجيوشها فى هذا العهد وما أتى بعده تكسب لهـا النصر حيناً وتحمى مصالحها فى الشرق والغرب أحياناً ، وهكذا عمل بطلميوس الأول وخلفاه القويان بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) ، وبطلميوس الثالث

(يورجيتيس) على خلق مملكة قوية فى مصر ، كانت على قدر عظيم من الغنى والثروة والقوة استطاعت بها أن تحتفظ باستقلالها ، وأن تدفع عن كيانها غائلة الاعداء وتوسع منطقة نفوذها السياسى فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط وكانت مصر فى كل ذلك القلب النابض لتلك المملكة الواسعة ، وفيها تركزت آمال البطالمة ، ومنها سارت جيوشهم تفتح الأمصار وتدوخ الأعداء وتقتطع أملاك الجيران فى الشمال والشمال الشرقى ؛ فجرّت هـذه السياسة عليهم عداء الطامحين من جيرانهم المنافسين لهم فى وضع يدهم على التركة المقدونية ، واستمر التنافس على أشده مدة بين ثلاث ممالك كبرى ظهرت على أنقاض امبراطورية الاسكندر وهى مصر تحت حكم البطالمة (Ptolemies) وآسيا والشام تحت حكم السلوقيين (Seleucids) ومقدونيا وبلاد الاغريق تحت حكم الأنتيجونيين (Antigonids) .

وكان عماد البطالمة فى تنفيذ سياستهم الخارجية جيشاً عظيما وأسطولا كبيراً مثّـلا قوة مهيبة فى شرق البحر المتوسط والسواحل المطلة عليه ؛ فكان هذا الجيش البطلميوسى يتكون بصـفة رئيسية من الاغريق والمقدونيين الذين وفدوا على مصر كالسيل ، وملأوا أرجاء البلاد ، واكتظت بهم شوارع الأسكندرية ، وإلى هؤلاء أشار شاعر البلاط ثيوكريتس فى إحدى قصائده الرعوية [1] . وإلى جانب هذا الجيش النظامى كان بطلميوس يستخدم قوات مرتزقة على نطاق واسع ، وكان يجمع هذه الفرق المرتزقة ويقوم بتعبئتها من أحد أسواق الجند متعهدون كان يعرف الواحد منهم فى ذلك الوقت باسم Condottiere ، وكانت هذه الفرق تلحق بخدمة من يقدم لهم أحسن الشروط من الملوك إذ ذاك ومن يضمن لهم الأسباب لتهيئة أعظم الفرص لاظهار شجاعتهم وبسالتهم وتحقيق أطماعهم وإشباع غاياتهم [2] . ولقد اشتهر اسم ملك مصر بطلميوس فيلادلفوس

(1) Theocritus, Idyll IV

(2) Lesquier, Institutions Militaires de l'Egypte sous les Lagides, 1911, Chap. IV.

بكرمه وسخائه ومقدرته على دفع أحسن الأجور لأولئك الجند[1] .

وعلى ذلك كان العنصر الغالب فى جيش بطلميوس ، المرتزقة من المقدونيين والاغريق الذين تهافتوا على الانضواء تحت لواء ذلك الجيش وخدمة البطالمة لطمعهم فى غنى مصر وثروتها التى كانت مضرب الأمثال ، فنزحوا إليها وكانت ترحب بهم وتهيئ لهم من الوسائل ما يكفل راحتهم وطمأنينتهم ، فتسرب إليها أفواج من الاغريق والمقدونيين ، وصحبهم كثيرون من سكن البلقان وجزائر بحر الأرخبيل وآسيا الصغرى والشام والعراق ، وأغدقت الحكومة على الأولين من هؤلاء خيراتها وخصتهم بأسمى الوظائف ، وهيأت لهم كل الضمانات التى كانت تكفل لهم ولذويهم حياة طيبة هنيئة ، وأسكنتهم إقطاعات من الأرض فى شتى أنحاء مصر كيما يشدوا أزرها إذا ألمت بها الأزمات والحروب واستعانت بهم فى أوقات السلم فى إخراج مشروعاتها الانشائية إلى حيز الوجود ووكلت إليهم تنفيذها .

فتح بطلميوس وخلفاؤه أبواب بلادهم على مصاريعها للاغريق والمقدونيين — مدنيين وحربيين — فاستمروا يتدفقون إلى البلاد حتى منتصف القرن الثالث ، إما جنوداً مرتزقة وإما مستعمرين . ووجد البطالمة الأولون أن من واجبهم اجتذاب الاغريق والمقدونيين وأشباههم باسكانهم فى مصر ليكون منهم جنود الجيش عند الحاجة ، ولكى يحببوا إليهم الاقامة فى مصر ، وليضمنوا إخلاصهم فى زمن الحرب ، منحوهم مزايا مادية مغرية ، فكان الجندى منهم فى الجيش النظامى يعطى الأجر والزاد ، وفى زمن السلم كانت حكومة بطلميوس تدبر لهم وسائل الرزق والمعيشة فى مصر ، فتقطعهم أراضى تسمى (Kleroi) يفلحونها ، وتعد لهم ولعائلاتهم مساكن Stathmoi بالقرب من هذه المزارع ، أو تضطر الأهلين أن يضيفوهم ، فاذا دقت طبول الحرب أسرعوا إلى الانضمام لفرقهم ، والخروج لميدان القتال مزودين بأسلحتهم . وهكذا نشأت فى مصر طبقة من

(1) Theocritus, Idyll, XVII

الجند الفلاحين يعرفون فى التاريخ باسم Klerouchoi ، والتصقوا بالأرض جيلا بعد جيل ، وبهذه الوسيلة ضمن البطالمة وجود جيش قائم من جند مدربين أحسن تدريب أكثره من الأغريق والمقدونيين أو من الأجانب الذين تشبهوا بهم وتطبعوا بطباعهم ، وتعودوا النظام الحربى منذ نعومة أظفارهم ، وشبوا على المحبة والاخلاص للأسرة التى يرجع إليها الفضل فى نجاحهم واختيارهم .

وهكذا قام حكم بطلميوس الأول وخلفائه على أكتاف تلك العناصر المسيطرة فى البلاد من الأغريق والمقدونيين الذين كانوا حصنهم الحصين ، واستمر حكم البطالمة فى النصف الأول من عهدهم قائما على أسس قوية ونظام متين ترفرف على جوانبه الرفاهية والأمن . وبلغت مصر فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد أوج عظمتها وقوتها ، وكان ملكها أغنى وأقوى حاكم فى ذلك الوقت فى شرق البحر المتوسط تسيطر أساطيله وجيوشه على امبراطورية مصر الخارجية التى كانت تشمل فلسطين وفينيقيا وكويلى سوريا أو سوريا الجوفاء - Coele Syria وقيرنية وقبرص وجنوب آسيا الصغرى وجزائر بحر الأرخبيل ، وكان النشاط الحربى والسياسى فى هذا العهد الآنف الذكر على أشده بين البطالمة والسلوقيين الذين كانوا يتطلعون على الدوام الى اقتطاع أملاك مصر فى آسيا ، وكان سفراء البطالمة وقوادهم يعملون بجد ونشاط على الاحتفاظ بذلك المركز الممتاز الذى كان لمصر شرقى البحر المتوسط كما تمثل الدور الأساسى الذى أعدته لها المقادير فى معترك السياسة فى ذلك العالم الأغريقى الشرقى ، وعلى رغم أن علاقات مصر بجيرانها فى الشرق كانت ذات صبغة عدائية فى بعض الأحيان لما كان بينها من تنافس ، فانها كانت فى الوقت نفسه ، بفضل تجارتها وبعد صيتها وسمعتها فى الخافقين ، معروفة فى البحر المتوسط أيضا [1] تخطب ودها دوله وممالكه التى ترتبط بعلاقات المودة والصداقة بالأسرة المالكة فى مصر ، ويتألق نجمها فى السماء .

(١) فى أثناء الحرب البونية الأولى ٢٦٤ـ٢٤٢ ق . م . بين روما وقرطاجة رغب بطلميوس ملك مصر فى التوسط فى الصلح بين المتحاربين ورفض إقراض قرطاجة مبلغا من المال كانت قد طلبته حتى لا يُغضب روما .

وكانت المنشئات والأعمال العمرانية فى هذا العهد الجديد قائمة على قدم وساق وأخذ النشاط يدب فى ذلك الجسم البالى القديم فى شتى النواحى الادارية والزراعية والصناعية والتجارية ، وشعرت البلاد أنها بدأت تستقبل عهداً جديداً ، وكان فى مقدمة كل ذلك إتمام بناء المدينة الجديدة المسماة بالأسكندرية ، التى أصبحت بحق عنواناً لبدء العهد الجديد الذى صارت فيه مصر مثالا يحتذيه غيرها من ممالك الشرق ، ونموذجاً لها بفضل ما كان لحكومتها من أنظمة قد أحكم وضعها لاصلاح شئونها ، وتحسين أحوالها الاقتصادية واستغلال مواردها إلى أقصى حد وتثبيت دعائم الحكم فيها بما وضع لها من نظم وقواعد إدارية اشتهرت بها ، وبقيت تسير على منوالها نحو ألف سنة .

ولم يدخر البطالمة وسعا فى سبيل ترقية أحوال البلاد وتحسين مواردها ، فاشتهرت مصر بمحصولاتها الزراعية والصناعية الكثيرة فى شتى أنحاء الممالك الشرقية القريبة، وامتدت تجارتها إلى آفاق بعيدة فى آسيا فشملت بلاد العرب والهند وفلسطين وسوريا وفينيقيا وجميع البلاد المطلة على شرق البحر المتوسط والبحر الأسود ، وصادفت السلع المصرية من غلال ومواد كتابية وورق البردى الذى كان مادة الكتابة فى العالم القديم ، وزجاج وعاج ومعادن ، رواجا عظيما ونجاحاً كبيراً ، وأصبحت هذه السلع — التى كان بعضها احتكاراً فى أيدى الملك وحكومته — معروفة فى الشرق من أقصى الصين والهند وأواسط آسيا إلى أواسط أفريقيا تدر على الحكومة أرباحا طائلة بلغت حداً كبيرا حتى عرفت أسرة البطالمة واشتهرت بثروتها التى لا تجارى ، واستطاعت أن تجمع من الكنوز والنفائس ما جعلها مضرب الأمثال فى الغنى والثروة ، ومطمح الأنظار فى العالم القديم(1) .

وكانت الاسكندرية حاضرة البلاد وتركزت فيها الدواوين والأعمال الحكومية فاتخذها الملوك مقامهم ، ومن حولهم حاشيتهم ومساعدوهم ، وتنبعث منها فى أنحاء البلاد الأوامر الملكية التى كانت تتناول مختلف المسائل حتى أبسطها ، فلم

(1) Monopol, Pauly-Wissowa, Realencyklopadie des Klass. altertums. Préaux, L' Economie Royale des Lagides, 1939; Revenue Laws of Philadelphus, Mahaffy.

تفت الملك أتفه المسائل ، بل كانت حكومته تولى عنايتهـا واهتمامها كل صغيرة وكبيرة — وكانت تلك المدينة فى نظر الأجانب والمصريين على السواء أم المـدن والأمصار ، وحاضرة العالم القديم بأسره ، تلتقى فيها جميع الأجناس والحضارات ، وبنيت على مثالها مدن عدة فى شتى أنحاء الشرق بالأفغانستان وبلوخستان وغيرها وسميت أغلبها الأسكندرية ، فلا غرو أن كانت مدينة الاسكندرية إذ ذاك عالمية تحتذى فى كل مظاهرها ، ولعل شرح مزايا الاسكندرية بمصر على هـذا النحو الآتى يساعد على تصور ما كانت عليه تلك الاسكندريات فى أنحـاء الشرق من مكانة كمراكز للثقافة .

وصف الأسكندرية :

كانت مدينة الأسكندرية بمصر فى شكلها العام على هيئة مستطيل تتخلله المسالك الطويلة المستقيمة المتقاطعة بعضها مع بعض ، قام بتخطيطها المهندس دينوكراتيس Dinocrates ، تطل على البحر المتوسط ، ومن أهم أبنيتها القصر الملـكى المشيد فى الحى الملـكى «لوخياس» عند الشاطئ الذى كانت تحيط به المعابد والحدائق الغناء ، ودار الحـكمة Museum التى كانت بمثابة جامعة الأسكندرية القديمة ، والمـكتبة المشهورة الملحقة بها ، ومقابر البطالمة ، وقبر الاسكندر ، وتطل على كل هذه المبانى الفخمة جزيرة فاروس التى اتصلت بالساحل بجسر أقيم فى نهايته ذلك المنار العجيب الذى صممه المهندس سستراتوس Sostratus على شكل برج مكون من ثلاث طبقات يبلغ ارتفاعه أربعمائة قدم ، ويضيق كلمـا ارتفع ، وقد أقيم من فوق هذه الطبقات الثلاث ثمانية أعمدة عليها قباب ، قد أوقد من تحتها نيران تنبعث منها أضواء تمكس بواسطة مرايا محدبات لترشد البحارة وتهديهم إلى بر السلام ؛ ولقد اشتهر ذلك المنـار العجيب فى العالم القديم وطبق صيته الآفاق لدرجة أن أصبح يعتبر أحد عجائب الدنيا السبع ، (ومحله الآن قلعة « قايتباى ») .

وكانت بالمدينة ميادين للسباق ومختلف الملاعب والأندية الرياضية والأبنية

العامة والمعابد . ولقد جذبت إليها ببهائها وحسن موقعها السكان من جميع الأقطار فى الشرق والغرب ، وأخذ عدد سكانها فى تزايد واضطراد على توالى الزمان ، حتى أصبحت تزخر بهم داخل حوائطها الأصلية ، واستمرت المدينة تضطرد فيها الزيادة والاتساع إلى أن أصبحت فى القرن الثانى قبل الميلاد أكبر مدن العالم القديم قاطبة ، وبلغ عدد سكانها فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد نحو مليون نسمة . ولقد خلد الكتاب والمؤرخون أمثال پوليبيوس ، والجغرافيون أمثال استرابون ، وشعراء البلاط أمثال ثيوكريتس ، وصف تلك المدينة التى أصبحت مركز الثقافة فى الشرق . ولتعرف مدى اختلاط الأجناس البشرية فى تلك المدينة يكفى أن نذكر الحوار الذى رواه الشاعر ثيوكريتس فى إحدى قصائده الرعوية[1] بين أجنبي وامرأتين من سيراكيوز خرجتا لمشاهدة موكب أقيم فى الأسكندرية تكريماً لأدونس Adonis . فلما بدا الضيق على هذا الأجنبي الذى أصمَّته ثرثرة إحداهما وتسمى پراكسينوا Praxinoa مع صديقتها المسماة جورجو Gorgo صاح فيهما قائلا : « أيتها النسوة الثقيلات الظل ! ألا تسكتان عن تلك الثرثرة التى لا تنتهى ولا تنقطع كزوج من الحمام ! إن سماع هذه اللهجة الدورية ثقيل على أذنى ، ويكاد ينفد معه صبرى » . فأجابته پراكسينوا على الفور : « يا للآلهة ... من أى أرض أتى ذلك الشخص ؟ ما شأنك بنا وما ذا يعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشترى عبيدك أولا قبل أن تأمر وتنهى فيهم ... اعلم أن من تصدر إليهن أوامرك هن من أهل سيراكيوز وأحب أن تعلم أيضاً أننا من أصل كورنثى ونتكلم اللغة البلپونيزية ، وأظن أنه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ! » .

ولقد وصف الشعب الأسكندرى المؤرخ پوليبيوس الذى زار الأسكندرية فى عصر متأخر فى عهد بطلميوس الثامن (يورجيتيس الثانى) فقال : « كان يوجد بالمدينة ثلاثة عناصر : العنصر الوطنى من المصريين ، وهو نشيط لبيب متحضر ؛ والجنود المرتزقة ، وكانت تعلوهم سمة من الكبر والصلف ،

(1) Theocritus, Idylls XV

وهم عديدون وخليقون بمركزهم (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل أن يحتفظوا بالجنود المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية وكفاية الملوك المتعاقبين أن يحكموا بدلا من أن يعرفوا الطاعة) . وثالثاً العنصر الأسكندرى الذى لم يكن فى الحقيقة متحضراً لنفس الأسباب ، ولو أنه كان على أى حال أفضل من العنصرين الأولين ، وبالرغم من أنه أصبح يتكون من أجناس خليطة ، فانه كان إغريقى الأصل ، ولم ينس قط المميزات المشتركة التى اتصف بها الاغريق »(1) .

وبالطبع كان التقاء هذه الأجناس والشعوب فى تلك المدينة التى أصبحت كالبودقة تلتقى فيها الشعوب وتمتزج فيها العناصر ، معناه امتزاج كبير للثقافات والأفكار ؛ ومما سبق وصفه — وإن كان قليلا — يستطيع القارئ تصور جمال مبانيها الملكية وموانيها ومنارها وأبنيتها العامة ، وبخاصة جامعتها ومكتبتها وشوارعها المستقيمة الواسعة التى كانت تضاء ليلا ، وحدائقها ومتنزهاتها وميادينها وملاعبها ودور التمثيل بها وقصورها الفخمة ومعابدها .

ولقد ساعد ملوك البطالمة تلك المدينة التى كانت سباقة فى كل شىء وفارسة الحلبة فى كل مظاهر الحياة ، فأحرزت قصب السبق فى كل الميادين ، وجذبوا إليها قادة الفكر فى العالم الاغريقى من فلاسفة وأدباء وحكماء وكتاب وجغرافيين وعلماء ، وشجعتهم الحكومة بأن أغدقت عليهم من الخيرات ما ساعدهم على التفرغ لعملهم النبيل ، فعمل الجميع على وضع الأسس التى قامت عليها نهضة فكرية فى مصر صارت عنوان ذلك العصر ، وانبعث منها على مضى الزمان ضوء كان يصل شعاعه إلى أقصى أنحاء العالم الهيلينى ، وصدى كان يتردد فى أرجاء الشرق ، حتى كانت مركز الثقافة فى الشرق بأجمعه ومستقر حضارة عمت أنحاءه ، فهرع إليها القاصى والدانى ليرتشف من مناهلها العذبة .
ولقد وفد على المدينة أحسن الشعراء والعلماء والمهندسين المعماريين والنحاتين وغيرهم ، فوجدوا كل الفرص والظروف مهيأة أمامهم للعمل بجد ونشاط

(1) Polybius, XXXIV, 14 — 2 — 5

لاخراج ثمـار أفـكارهم . فتبارى الشعراء أمثال كاليما كوس وأبولونيوس الرودسى وثيوكريتس ، فى الاشادة بالبيت البطلميوسى المـالك ، وفى التغنى بمجد البطالمة — وكانت « جامعة الأسكندرية » موطناً صالحاً لتقدم الفـكر الانسانى فى شتى النواحى الأخرى وللقيام بالأبحاث العلمية والفلـكية ودراسة الآداب والفنون والجغرافيا والفلسفة ، كما كانت مكتبة المدينة كعبة العلماء ومحط رحال الأدباء ، ومستودع الحـكمة والمعرفة والفلسفة ومفخرة مصر والبطالمة جميعاً فى العالم القديم ؛ وكانت الأسرة المـلكية طوال عهدها تغذى هذه الحركة الفـكرية والنهضة العلمية وتشجعها مادياً وأدبياً . ثم إن الأبنية العظيمة وأعمال النحت والتصوير ، وهى ثمار أفـكار النابغين من رجالات الفن ، كانت تزين الأسكندرية وتـكسبها بهاء وجمالا ، فصارت بعد قليل من الزمان عروس البحر المتوسط فى عصر البطالمة .

ومما لا شك فيه أن تلك الأسكندريات التى أسست فى أنحاء الشرق بعد موت الاسكندر كانت كلها على نسق الاسكندرية بمصر من حيث تخطيطها وبناء معابدها ومظاهر الحضارة الهيلينية فيها . فالغاية واحدة والنموذج واحد وخلفاء الاسكندر فى الشرق عملوا على تحضيره ، وصبغه بصبغة هيلينية وفق طابع خاص كانوا يترسمون خطاه ، وكانت الأسكندرية فى مصر ، وهى المعين الذى اقتبسوا منه ثقافتهم وحضارتهم ، وساروا على نسقها ، واقتفوا آثارها وحجوا إلى كعبتها ، كيما يرتشفوا من مناهلها العذبة ، ويتغذوا بلبان علومها ومعارفها ، فـكان يقصدها القاصى والدانى من أهل فلسطين والشام والعراق واليهود والأعراب الضاربين فى شمال بلاد العرب وجنوبها وسكان أفغانستان والحيرة من عجم وعرب وغيرهم . وتلاقت فيها جميع هذه الأجناس النائية مع من نزحوا إليها من شرق البحر المتوسط وجزائره ، وصار الناس يسمعون فى شوارعها متباين اللغات واللهجات[1] ، فـكانت مدينة عالمية بحق . ولقـد نجحت المدينة فى مهمتها ، ولازمها التوفيق فى نشر هذه الثقافة ، وتأثر بعلومها

(١) انظر ثيوكريتس القصيدة الرعوية رقم ١٥ التى سبقت الاشارة إليها

ومعارفها الـكثيرون ، واستطاعت أن توجد طابعاً أغريقياً خاصاً بها عرف في تاريخ الأدب بالعصر الأسكندرى ، امتاز به أهل الأسكندرية ومن نحا نحوهم فى كل العصور من بعدهم .

ولقد كانت العناصر الهيلينية فى الأسكندرية وفى مصر جماء تحرص أشد الحرص على الاحتفاظ بحقوقهـا وامتيازاتها ، فصمـدت لـكل الظروف واستطاعت برغم زوال كثير من مقومات الحضارة الهيلينية ، وبرغم ما اعتراها من ضعف ووهن ، وما حل بهـا من تفكك فى العهد المتأخر من حكم البطالمة الاحتفاظ بكل المظاهر الخارجية لتلك الحضارة الاغريقية والدفاع عنها محتفظة بالسيادة فى البلاد مدة ثلاثة قرون يمـكن تقسيمها بوجه عام إلى شطرين ، ففى الشطر الأول من حكم الاغريق فى مصر كان ملوك البطالمة قوة عظيمة ودولة كبيرة استطاعوا أن يخلقوا من مصر دولة مهيبة فى الشرق تـكفل لهم نظاماً اقتصادياً دقيقاً كان يسود جميع نواحى الادارة المصرية ، وكان مثـار إعجاب جيرانهم من ملوك الشرق ، وأوجدوا كل الظروف والعوامل التى هيأت لهم جواً صالحـا فى مصر لمضاعفة نشاطهم الاقتصادى ، والاستفادة من مقدرتهم ومهارتهم الخاصة فى الشئون المالية ، واستطاعوا بفضل تلك الخبرة الواسعة أن يفيدوا البلاد التى تحسنت أحوالها الاقتصادية ، ودرت عليهم الخيرات الطائلة فملأوا بها خزائنهم التى أصبحت تزخر بالأموال والـكنوز ، وكانت على الدوام مطمح أنظار الساسة فى العالم القديم .

وفى هذا العهد أيضا استطاع ملوك البطالمة أن يهيئوا فى مصر من الظروف ما ساعد الأهلين على أن يعيشوا فى ظلها هانئين ، لأن الحـكومة البطلميوسية كأية حكومة قوية كان فى إمكانها أن تضمن السلم فى الداخل ، وأن تحقق أطماع مصر السياسية فى تلك الآفاق البعيدة فى الشرق والشمال ، وأن تدافع فى أرجاء آسيا عن مصالح مصر وترعاها ، وأن تنشر فى تلك الآفاق ألوية العلم والحضارة التى كانت تنبعث أنوارها من الأسكندرية إلى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين (العراق) والشام وفلسطين وبلاد العرب واليمن وغيرها من البلاد المطلة

على سواحل البحر الأحمر .

وفى الشطر الثانى من حكم الأغريق بمصر كان ملوك البطالمة فى هذا العصر المتأخر يجنون فى الحقيقة ثمار غرس البطالمة الأولين ، برغم ما كان يبدو من علامات الوهن والتراخى والاهمال فى نواحى الادارة المصرية ، وما كان يقوم به المصريون من ثورات ، وكان الملوك فى هذا العهد يترسمون خطى الملوك الأوائل ويقتفون آثارهم ، فلم يحيدوا قيد شعرة عن السياسة التى اختطها لهم الأولون ، وعلى العموم كان ملوك البطالمة طول عهدهم يعالجون الأمور بقدر ما تسمح به ظروفهم واضعين على الدوام نصب أعينهم مصالحهم الخاصة ، ومصلحة البلاد التى يحكمونها ، عاملين على رفع شأن مصر فى الشرق ، وتبوئها دائما المكان الأول ، واتبعوا جميعا نظاما واحدا فى الحكم ، فكان التوفيق يلازمهم أحيانا ، والخيبة أحيانا أخرى ، بسبب مقدرتهم الشخصية والظروف الخارجية التى كانت تحيط بهم ، ولقد لازمهم التوفيق فى الاحتفاظ باستقلال مصر فى عهدهم مدة أطول مما أتيح لخلفاء الاسكندر فى آسيا وأوربا ، وقد نجم عن سياستهم الرشيدة وعنايتهم واهتمامهم بدقائق الأمور ذلك المركز الممتاز الذى كان لمصر فى الجزء الأكبر من عهدهم ورواج الصناعة المصرية وانتشارها فى جميع أنحاء العالم المتحضر إذ ذاك ، ونشر الفن الأغريقى فى ربوع آسيا الغربية .

وإذا عدت مكتبة الاسكندرية وجامعتها مفخرة للبطالمة فى نظر العالم وفى صفحة التاريخ كفاهم هذا دليلا على اهتمامهم بالعلوم والمعارف وبرهانا مدينا على مركزهم الثقافى الممتاز الذى وفقوا فى الاحتفاظ به لمصر بين جيرانها فى الشرق فلم يدخروا وسعا ، ولم يتأخروا عن البذل بسخاء فى سبيل رفعة شأن « جامعة الاسكندرية » وجذب العلماء إليها ، وتهيئة سبل الحياة الهادئة الهنيئة لهم فى ظلالها ، فأثمرت جهودهم أحسن الثمار ، وأخرجت تلك الجامعة ذخرا وتراثا علميا لا يزال إلى الآن عنوان ثقافة وحضارة خاصة ازدهرت مدة طويلة فى مصر وأكسبتها مركزاً ممتازاً كانت فيه موضع حسد جيرانها ، ومع ذلك محط آمالهم وأحلامهم على الدوام .

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

